عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

تخطيط مدينة بغداد

عبر العصور التاريخية « دراسة في التخطيط الحضري »

بقلم الدكتور

صبري فارس الهيتي

كلية التربية ـ جامعة بغداد

ان البحث في تخطيط مدينة بغداد ، هذه المدينة الخالدة التي يمتد عمرها الى اكثر من اثني عشر قرناً ، يحتاج الى الكثير من الجهد والاناة . وذلك لطول الفترة التي مرت على هذه المدينة ؛ ولتعدد الحكومات التي سيطرت على العراق بشكل عام وبغداد بشكل خاص ابتداء من ايام العباسيين حتى خروج الانكليز من العراق . وما اصاب بغداد من جراء ذلك من بناء وعمران تارة وعنت وتخريب تارة اخرى . ولسبب ذلك فان ما كتب عن هذه المدينة يحتاج الى تمحيص وتدقيق لكي يمكن الخروج منه بمادة دقيقة ومنظمة تعكس تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية . وهذا ما حاولت هذه الدراسة الخروج به .

× × ×

اختيار موقع بغداد

بدا الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور في سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م في بناء مدينته المدورة المشهورة (بغداد) على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة ومجرى دجلة شمالا وسماها « مدينة السلام »(١)

وكان اسم بغداد معروفا قبل المنصور ، اذ كانت بغداد في ايام مملكة العجم قرية يقيم بها الفرس في كل سنة سوق عظيمة يجتمع بها في ذلك الموسم التجار (لاحظ الخارطة شكل ١) ، فلما توجه المسلمون الى العراق وفتحوا السواد ، ذكر للمثنى بن حارثة الشيباني امر سوق بغداد فقصدها .(٢) وهذا يستدل منه على وجود بغداد قبل الفتح الاسلامي .

ولكن كيف وقع اختيار المنصور على هذا الموضع لبناء مدينته ؟ تذكر الكتب التاريخية ؛ على ان المنصور عندما تفحص موضع بغداد القديم توجده موضع ملائم من الناحية العسكرية قال عنه « هذا موضع معسكر صالح »(٣) كما انه بعث روادا يطلبون له موضعا ، فاستشاروا عددا من الحكماء ومنهم صاحب بغداد الذي اخبر المنصور بميزات موضع بغداد التي اعجب بها المنصور حيث قال له : وانت يا امير المؤمنين « عندما تنزل في بغداد فانك تصير بين اربعة طساسيج (جهات) ؛ طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي ، فاللذان في الغربي قطربل وبادوريا ؛ واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ؛ فان اجدب طسوج وتاخرت عمارته كان الاخر عامراً . وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجبئك الميرة من الغرب ، وفي الفرات تجبئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان ، وتجبئك الميرة في السفن من الصين والهند

(١) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨ ، ص ٤٢

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣١ ، ص ٢٥ ـ ٢٧ .

(٣) طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ .

WWW.ATTAWEEL.COM

والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمينية واذربيجان وما اتصل بها حتى الى الزاب؛ وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة وديار بكر وربيعة والموصل في دجلة . وانت بين انهار لايصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك . وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ؛ وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ؛ وانت قريب من البر والبحر والجبل(٤) .

وكانت مدينة المنصور تقع بين الكاظمية من الشمال وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ جنيد والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وهي تقابل محلة هيبة خاتون في الجانب الشرقي ، وعليه كان موضعها الصحيح قريبا من مقابر قريش (اي الكاظمية) الحالية (انظر الخارطة شكل ـ ٢) ، وان اكثر مواضعها اصبحت بساتين ومزارع ، ثم جرى عليها تغيير مستدام بسبب تقدم العمران وتكرار الاغراق من فيضان الفرات ودجلة مما ادى الى زوال اثارها منذ قرون عديدة واندثرت معالمها منذ عصور طويلة ؛ ولم يبق من مبانيها واسوارها وحوائط فصلانها وخندقها ومساتها وابوابها اي اثر .(٥)

تخطيط المدينة :

عندما عزم المنصور على بناء المدينة احضر المهندسين واهل المعرفة بالبناء واعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين فمثل لهم صفتها التي في نفسه ، ثم احضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم . فاجرى عليهم الارزاق وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا من امر البناء ولم يبتدىء في البناء حتى تكامل بحضرته من اهل المهن والصناعات الوف كثيرة . ثم اختط خطتها التي رسمها له المهندس العربي (الحجاج بن ارطاة) وجعلها مدورة .(٦)

وقد خطت المدينة اولا بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط واشعلت فيها النار بغية ابرازها بشكل واضح ، وحفرت اسس السورين والخندق العميق المحيط بها من الخارج بحسب الخطوط الموضوعة .(٧) واشتهرت مدينة المنصور في كونها مدورة ، اذ تميز بنائيا بكونه مثالا لاقوى المدن المحصنة في القرون الوسطى تتجلى فيها عظمة الدولة العباسية في ادوارها الاولى .

ومع ان اليعقوبي يذكر بانه لم يعرف اذ ذاك في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غير مدينة المنصور ؛ لكن المعتقد ان شكل المدينة كان تقليدا للتصميم البنائي لمدينة الحضر المدورة وذلك من حيث الشكل والمساحة . ولم تكن مدينة الحضر المدينة المدورة الوحيدة في الشرق العربي ففي جزيرة العرب مدينة مأرب باليمن كانت مستديرة ايضاً . ومع ذلك فمدينة المنصور كانت فريدة في نوعها في العهد الذي انشئت فيه بالنظر لعظمتها وضخامتها والجهود التي بذلت في انشائها .(٨)

وكانت خطة مدينة بغداد ، هي ادارة خندقاً واسعاً وعدة اسوار حول المدينة . وقد جعل المنصور لتلك الاسوار اربعة ابواب متقابلة ؛ فسمى الباب الشمالي الغربي « باب الشام » والباب الجنوبي الغربي «باب الكوفة» والباب الجنوبي الشرقي « باب البصرة » والباب الشمالي الشرقي « باب خراسان » وكان يسمى ايضاً « باب الدولة » .

وتعد هيئة مدينة المنصور المدورة ذات الابواب الاربعة المتساوية الابعاد ابتكاراً في الريازة العربية ؛ وتبلغ المسافة بين كل باب واخر ما يقارب ٢٥٠٠ ياردة ، ويتبين لنا من ذلك ان مقدار طول قطر الدائرة الخارجية حول الخندق من باب الى باب نحو ٣٢٠٠ ياردة .(٩) وحفر حول المدينة خندق عريض وعميق ، وله مساة محكمة

(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن، ١٨٧٧ ، ص ١١٩ .
ـ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ليبزك ١٨٦٦ ، ج ١ ، ص ٦٨ .
ـ الطبري تاريخ الامم والملوك ، ليدن ١٨٩٠ ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦ .
ـ ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، نسخ وتعليق محمد بهجة الاثري ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٢٢، ص ٨ .

(٥) د . احمد سوسة ، د . مصطفى جواد (وجماعتهما) ، بغداد ، مطبعة رمزي ، بغداد ، ١٩٦٩ ص ٢٢ .
د . احمد سوسة ، الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد العاشر، ١٩٦٢ ، ص ٣٠ .

(٦) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
(٧) كي لسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦ ، ص ٢٥ .
(٨) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد ، ص ٤٤ـ٤٦.
(٩) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

عالية من جهة المدينة مبنية بالآجر والصاروج وهو مادة بنائية كالسمنت في القوة واللون ، واجري فيه الماء من قناة تأخذ ماءها من نهر (كرخايا)(١٠)

وكانت في وسط المدينة رحبة مدورة واسعة لم يشيّد في بعض جنباتها باديء الامر غير القصور والجوامع ، الا انها على توالي الايام اخذت تزدحم بالابنية نظير بقية اقسام بغداد . وكانت مساحتها نحو (٢٠٠٠ ياردة) طولا في مثلها عرضا يحيط بها السور المدور الداخلي باوابه الاربعة .(*) وفي وسطها قصر الخليفة الذي بناه بالآجر وسماه (قصر الذهب) وسمى بابه باب الذهب وانشا مسجدا واسما ملاصقا له . وكانت مساحة القصر اربعمائة ذراع في اربعمائة ومساحة المسجد مائتين في مائتين ، وكان في صدر القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعا وعلى سطح الايوان مجلس مثله وفوق المجلس القبة الخضراء التي كان على راسها تمثال فارس بيده رمح ، فاذا ادار التمثال استقبل بعض الجهات ومد رمحه نحوها . وارتفاع الايوان الى اول عقد القبة عشرون ذراعا وارتفاع المجلس والقبة الخضراء ستون ذراعا . وقد سقطت تلك القبة سنة ٣٢٩هـ في يوم مطير فيه ريح . وكانت تلك القبة علم بغداد وتاج البلد ومأثرة بني العباس .(١١)

اما المسجد فقد انشاه المنصور من اللبن والطين ، وجعل لاروقته اساطين من الخشب ، كانت كل اسطوانة منها قطعتين معقبتين بالعقب والغراء وخبات الحديد إلا خمس اسطوانات اوست كانت عند منارة الجامع .

ولم يكن بالرحبة الوسطى التي فيها قصر المنصور ومسجده بناء ولا دار ولا مسكن لاحد الا داراً من جهة باب الشام وسقيفة كبيرة ممتدة على اعمدة مبنية بالآجر والجص ، فكان صاحب الشرطة يجلس في الدار وصاحب الحرس يقيم في السقيفة ، وكان حول الرحبة منازل على خط دائر وهي منازل اولاد المنصور الاصاغر ومنازل القريبين من خدمته وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان النحوائج (التجهيزات) وديوان الاحشام (الاتباع) وديوان النفقات وديوان الصدقات (الزكاة)(١٢) . (انظر الشكل رقم ٢) .

(١٠) د . احمد سوسة ، بغداد المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(*) تقول بعض المصادر بان لبغداد سوران وليس ثلاثة ، وذلك لان السور الداخلي حول الرحبة المركزية لم يكن سورا متينا كالتراس ولهذا فلا يعتبر سورا للمدينة . اما السوران الاخران فهما الخارجيان وكان كالتراسين ولذا كان احدهما هو سور داخلي والاخر سور خارجي، اما السور الداخلي فليس الا حاجزا حول رحبة القصر والجامع انظر الخطيب البغدادي ، جـ ١ ، ص ٧٢ وكي لسترنج ، ص ٢٦ .

(١١) زكريا بن محمد بن محمود القزويني اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢١٤ .

اسوار المدينة :

ولاهمية اسوار مدينة بغداد باعتبارها احدى المعالم المهمة في المدينة ، ولانها على جانب كبير من الاهمية في اظهار الابداع في الريازة العربية ، نورد الوصف التالي لها وحسبما ورد في كتب المؤرخين والخططين العرب :ـ

بنيت اسوار بغداد من اللبن الكبير الحجم جداً . وقد كانت مكعبة الشكل ، يبلغ طول الضلع الواحد لبعضها (١٨ عقدة) وتزن الواحدة منها ٢٠٠ رطل ، والبعض الاخر بقدر نصف الاول وزنا وسمكا . وان المسافات التي بين اللبن في اسوار المدينة لم تكن متصلة ببعضها البعض بالاعمدة الخشبية (على العادة المألوفة عند العرب) بل بحزم القصب . وكان في كل ساف من سافات البناء ١٦٢,٠٠٠ لبنة . وكان السور الداخلي اعلى من السورين الخارجيين(١٣) وكان ارتفاع السور الكبير يبلغ ٩٠ قدماً ، وعرض قاعدته ١٠٥ قدماً ويقل سمكه تدريجيا الى ان يبلغ في الاعلى (٢٧/٥) قدماً وتتفق جميع الروايات على ان سمك السور الخارجي الاول اقل من هذا بكثير وربما كان هذا السور الذي ذكر الطبري ابعاده ، فقد ورد عنه ان عرض قاعدته ٧٥ قدماً ويقل سمكه في الاعلى حتى يبلغ ٣٠ قدماً وارتفاعه نحو (٦٠ قدماً) . كما ان الخطيب البغدادي يعطي ابعاداً اخرى للسور الكبير فيقول « وسمك ارتفاع هذا السور الداخلي في السماء ٣٥ ذراع (٥٢,٥ قدماً) وعرض السور من اسفله نحو ٢٠ ذراعاً او ٣٠ قدماً(١٤) .

وجلب المنصور لابواب مدينته رتاجات من الحديد لا يغلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة رجال لضخامته ، فقد كان الفارس يدخل منه بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل

(١٢) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(١٣) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

(١٤) انظر : كي لسترنج ، ص ٢٧ ، البغدادي ص ٧٤ ، ابن الجوزي ، ص ٩ ، الطبري نفس المكان .

الاول العلم ولا ان يثني الثاني رمحه . وجعل للابواب الاربعة دهاليز اربعة عظيمة كالها اراج (اي عقود) وطول كل دهليز ثمانون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ؛ وعقودها من الاجر والجص . وكان إذا دخل احد الابواب وجد الدهليز على يساره ؛ وكان فوق كل عقد من عقود الدهليز مجلس قبة شاهقة عظيمة ، ارتفاعها خمسون ذراعاً (٢٥ متراً) فيها زخارف ونقوش . وكان يصعد الى القبة وامثالها سيراً او ركوباً على الدواب لضخامتها وكان يرابط عند كل باب الف جندي مع قائدهم(١٥) . ومما يروى عن هذه العقود بان علوها غير متساو وان بعضها مبني بالجص والاجر وبعضها الاخر بالابن المطام . وعلى ظهور هذه العقود حتى اعلى السور المصعد ؛ وبهذا يتم الصعود الى القبة التي فوق الباب . وكانت على المصعد ابواب تغلق ، فوق كل باب من ابواب السور الكبير غرفة عليا « مجلس » تشرف على المدينة ، فيجلس الخليفة هناك اذا احب النظر الى من يقبل من تلك الناحية .

واذا دخل الداخل مدينة المنصور يعبر اولا الخندق الواقع دون السور الخارجي . ثم يجتاز احد هذه الابواب الاربعة ، ومن كل باب يمتد طريق تؤدي الى الرحبة المركزية ؛ وكان الخندق بعد المسناة قد اجري فيه الماء ؛ وفي جانب الخندق القريب من السور سدة او مسناة حول المدينة بشكل اقواس كل منها ربع دائرة تصل بين باب واخر ؛ وجوانب هذه المسناة مبنية بالآجر والصاروج . وكان في السور الخارجي ابراج ، فبين باب الكوفة وباب البصرة ٢٩ برجاً ، وبين كل باب من الابواب الاخرى ٢٨ برجاً فقط ؛ ومعنى هذا ان كل برج يبعد عن الاخر ٦٠ ذراعاً بناء على طول السور(١٦) .

استعمالات الارض داخل المدينة المدورة :

اضافة الى قصر الخليفة ومسجده في الرحبة الوسطى ، وقصور ابنائه والمقربين والدواوين لم يكن هناك اي بناء اخر في بادىء الامر (كما سبق الاشارة الى ذلك) . اما بقية الابنية والدور فكانت في الفصيل الذي بين السورين الكبير والداخلي الذي حول الرحبة المركزية وكان في الفصيل اربعة اقسام كل منها ربع دائرة . ويفصل هذه الاقسام الاربعة عن بعضها بعضا السكك الاتية من الابواب . وكان عرض الفصيل من السور الكبير الى السور الداخلي اقل من ١٥٠ ذراعاً ؛ وطول كل ربع من ارباع الفصيل من باب الى باب ميل واحد . ويختلف هذا الفصيل عن الفصيل الخارجي الذي كان خالياً من الدور لوجود الشوارع والدروب فيه . ولم تكن مساحة الارباع الاربعة للفصيل تعدو على ثلث ميل بوجه عام(١٧) وقد بلغت مساحة المدينة ٢٦٢ر٣١٤ر٥ مترا مربعا او ٢١٢٦ مشارة وعلى هذا يكون طول قطر محيطها ٢٦١٥ مترا . وعند بدء السكك التي بين ابواب السور الكبير والسور الداخلي وعند منتهاها ، رحبة خارجية واخرى داخلية ؛ وعلى جانبي الطريق دكاكين من الطاقات . وعلى يمين الداخل الى الرحبة طريق وعلى يساره طريق للوصول الى الشوارع والدروب .

وكانت اسواق مدينة المنصور في الطرق الاربعة وبعد خمس سنين حولها من داخل المدينة الى ربض الكرخ التي امر ببنائه (كما سنأتي على ذكره فيما بعد) وجعلها لاصحاب السوق والتجار، وهكذا خلت الطاقات من الدكاكين واتخذت مراكز لشرطة المدينة وحرسها .

ولم يسمح المنصور لرجاله ان يبنوا دورهم ملاصقة للسور الكبير او سور الرحبة المركزية ، ولهذا فقد كان يلي السور الكبير حلقة عرضها ٢٠٠ ذراع خالية من الابنية تماماً لتكون طريقاً ؛ كما كان قبل سور الرحبة المركزية ارضا خالية حوله لتكون طريقاً اخر وتغلق الطرق والشوارع التي في كل ربع من الفصيل بابواب متينة قوية عند الحاجة .(١٨)

وظلت الشوارع تسمى غالبا باسماء اصحاب الدور والبساتين الذين كانوا وقت بناء بغداد ؛ وبنى الخليفة سجنه الكبير المسمى (المطبق) في الربع الجنوبي للفصيل ، حيث كانت الدور بين طريق باب البصرة وطريق باب الكوفة وباسمه سمي الشارع الذي يقع هذا السجن فيه . وسميت بعض اسماء الشوارع في الارباع الاخرى للفصيل باسماء سكانها وحرفهم مثل

(١٥) د . احمد سوسة ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .
علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ، ص ٩ .
(١٦) كي لسترنج ، ص ٢٠ — ٢١ .
(١٧) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ — ٧١ .
(١٨) كي لسترنج ، ص ٣٢ .

شارع السقائين وشارع المؤذن وشارع الشرطة(١٩) .

ويمكن فيما يلي اعطاء وصفا دقيقا للاستحكامات الحصينة لمدينة المنصور والتي من خلالها نستطيع التاكد من ان تلك المدينة كانت من امنع الحصون العظيمة في الشرق بالقرون الوسطى

فقد كان الشخص اذا جاوز احد الابواب عطف على يساره فسير في دهليز ازج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون ذراعا ، وهذا الدهليز يفضي الى رحبة مفروشة بالحصى طولها مستون ذراعا وعرضها اربعون ذراعا ، ولها في جانبها الجنوبي والشمالي حائطان متوازيان ينتهيان عند باب في اخر الرحبة وهو الباب الذي يراه الداخل . وفي كل من الحائطين باب يفضي الى فصيل عرضه مائة ذراع (٥٠ مترا) ؛ فمن يمين الداخل ويساره فصيلان. وهذا الباب الشاهق هو باب السور الاعظم ولذلك سمي (باب المدينة) ؛ مع ان الباب الاول هو باب الفصيل(٢٠) . فيدخل الداخل من الباب المذكور في دهليز ازج اخر معقود بالآجر والجص ايضا طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا ويؤدي الى رحبة مربعة عرضها كطولها عشرون ذراعا في مثلها ، فعلى يمين الماشي (الداخل من باب خراسان مثلا) يوجد طريق يؤدي الى باب الشام وعلى يساره طريق يؤدي الى باب البصرة في فصيل ثان يدور في داخل المدينة كدورة الفصيل الاول ، عرضه خمسة وعشرون ذراعا ؛ وفي هذا الفصيل تكون ابواب سكك مدينة المنصور التي يسكنها سكان المدينة الذين اجاز لهم الخليفة الاقامة فيها ثم يدخل السائر من باب ساج كبير فردين الى اطواق عدتها ثلاثمائة وخمسون طاقا وعرض الواحد منها خمسة عشر ذراعا وطولها مائتا ذراع(٢١) . ثم يخرج من الاطواق الى رحبة مربعة مساحتها عشرون ذراعا في عشرين ذراعا فمن يمينه طريق يفضي الى فصيل ثالث ويؤدي الى رحبة مماثلة اما يسلك اليها من باب الشام ، ورحبة باب الشام فيها طريق يؤدي الى رحبة ثالثة يسار اليها من باب الكوفة ومنها الى نظيرتها الرابعة في طريق باب البصرة ؛ وفي الفصيل الثالث تشرع ابواب لمدة سكك . واذا خرج السائر من الرحبة نحو الجنوب دخل في طاقات صغيرة ثم دهليز وسور ثالث يخرج منه الى رحبة دائرة حول مقر المنصور المعروف بباب الذهب ومسجد المنصور .(٢٢) (لاحظ شكل رقم ٤) .

محلات بغداد المدورة :

على اثر انشاء العاصمة الجديدة ؛ اقبل الناس على السكن في جوارها واتسعت قرية الكرخ التي في جنوب المدينة وصارت تعرف باسم محلة (الكرخ) وهي من المحلات الكبيرة بغربي بغداد . والكرخ قرية قديمة كانت في بعض مواضع كرخ العباسيين وكان يمر بالقرب منها العراة ونهر الرخيل . واتصلت عمارة الكرخ واسواقه بقرية (سونايا) الارمية التي سميت بالعتيقة لتقدمها عصرا على مدينة المنصور ، وعرفت ايضا بمشهدها المعروف اليوم بمشهد المنطقة بين الكاظمية وبغداد .(٢٣) وقد نقل المنصور في سنة ١٥٧هـ الاسواق من مدينته المدورة ومدينة الشرقية الى باب الكرخ وباب الشعير والمحول وهي السوق التي تعرف بالكرخ ، وفيها وسع طرق المدينة وارباضها ووضعها على مقدار اربعين ذراعا .(٢٤) وذلك بعدما قدم عليه وفد ملك الروم فامر ان يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقال لترجمانه ، كيف رايت هذه المدينة ؟ قال رايت امرها كاملا الا من خلة واحدة قال ما هي ؟ قال عدوك يخترقك متى شاء وانت لا تعلم ، واخبارك مبثوثة في الآفاق لا يمكنك سترها . قال كيف ؟ قال الاسواق . فامر المنصور حينئذ باخراج الاسواق من المدينة الى الكرخ وان يبني ما بين الصراة الى نهر عيسى . ودعا المنصور بثوب واسع فحد فيه الاسواق ، كل صنف منها في موضعه .(٢٥) فكان لكل تجارة وتجار شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا بياع صنف مع غيره . وكل اهل مفردون بتجارتهم .

ومهما يكن من امر فان الكرخ الا سلامية هذا الربض الواسع كان موجودا في تخطيط مدينة المنصور . وقبل مرور قرن على ذلك اخذت الكرخ

---

(١٩) اليعقوبي، البلدان، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٥٧، ص ٩ ـ ١٠ .
(٢٠) د . مصطفى جواد ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
(٢١) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .
(٢٢) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٢١٠ .
(٢٣) د . احمد سوسة ، الفيضان وطرق بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٣١ .
ـ د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٢٧ .
(٢٤) الخطيب البغدادي ، ص ٧٩ .
(٢٥) ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ١٢ .

بالتوسع والامتداد خارج حدود نهر عيسى ، فامتد هذا الربض الى جنوب النهر واشغل الاراضي الواقعة على جانبي طريق الكوفة مسافة بعيدة خارج بغداد (انظر الخارطة شكل) وبقدر طول الكرخ بفرسخين (الفرسخ ستة اميال) حدها الاعلى قصر وضاح خارج باب البصرة ؛ وحدها الاسفل سوق الثلاثاء ؛ اما عرضها فنحو فرسخ اعتباراً من ضفة دجلة شرقاً الى قطيعة الربيع غرباً . وتقع هذه القطيعة على يمين الآتي من طريق الكوفة بعد مروره بباب الكرخ .(٢١)

كما انشأت محلات اخرى عديدة من اهمها محلتا باب البصرة وباب الكوفة اللتان كانتا تقعان شمال الكرخ ؛ اما المنطقة التي في شمال المدينة ففيها عدة ارباض اهمها محلة الحربية في الناحية الشمالية الغربية ومحلة الشارع في الناحية الشرقية ، ومحلة باب التبن والقطيعة والزبيدية في اقصى الشمال بالقرب من الكاظمية الحالية . ومن المحلات الاخرى ، محلة باب الشعير وهي فوق مدينة المنصور ، ومحلة المحول التي كانت متصلة بالكرخ وفيها سوق دخان . ومحلة بادوريا وهي محلة مشهورة ، ومحلة براثا في طرف من بغداد في قبلة الكرخ(٢٧) ، ومحلة الترجمانية وهي محلة قديمة ، ثم محلة التسترين ومحلة دار القطن بين الكرخ ونهر عيسى . ومحلة الشرقية ومحلة ابو النجم . ثم محلة الشارع وهي محلة تعد من المحلات الاربع الكبرى ، والعتابية وهي محلة مهمة يصنع فيها الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الالوان(٢٨) . (انظر الخارطة شكل ـ ٥) .

كيف تدهورت المدينة المدورة :

يظهر من الوقائع والكتب التاريخية ان المدينة المدورة بقيت كما تركها المنصور الى وفاة حفيده الرشيد سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م . وبعد عامين من وفاة الرشيد اشتجر الخلاف بين الامين والمأمون ؛ وحوصرت بغداد لاول مرة في تاريخها ودام الحصار اربعة عشر شهراً . وفي حوالي عام ١٩٦هـ ٨١٢م اطبق جند المأمون على الامين في بغداد(٢٩) ، ورزح الجانب الغربي تحت ضربات المجانيق ؛ وتخرب الجزء الاكبر من نصفها الشمالي المعروف بالحربية . ثم رفع الحصار عنها بعد عامين واصبحت بغداد المزدهرة خرائب ودمار لاول مرة في تاريخها ، فقد دمرت النيران احياء باكملها وأتت على سجلات الدولة .(٣٠)

ولكن يظهر ان المدينة المدورة بقيت قائمة في خلال القرن الذي تلا هذا الحصار الا ان قصر الذهب تهدم سنة ٣٢٩هـ/٩٤١م ، وبقي الجامع صالحاً للصلاة حتى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد الحصار المغولي .

كما ان الغرق المتكرر من فيضان دجلة والفرات كان لها اثر في تخريب قسم من مدينة بغداد ، فقد كان يصعب صد تيار الماء في اثناء الفيضان . وقد حصل غرقاً عظيماً في سنة ٣٣٠هـ انهدمت على اثره الطاقات في المدينة المدورة القريبة من باب الكوفة(٣١) . وفي سنة ٣٠٧هـ رفعت بقايا قصر الخلد الذي كان في خارج الاسوار .

وفي نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، اختفت معظم مدينة المنصور عن الانظار ، اما الاقسام الباقية منها فقد تداخلت تدريجياً مع الابنية ، فالفت محلات بغداد التي قامت وراء الابواب الاربعة القديمة لمدينة المنصور وحولها .

بغداد الشرقية (الرصافة) :

تأسيسها :

كان المنصور قد عزم ان ينشىء محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد بشرقي مدينته المدورة ، وقدر ذلك وعزم عليه . وقد بدات العمارة فيها سنة ١٥٢هـ ٧٦٨م وانتهت سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م . وكان يرى ان هناك ضرورة لجعل مقر ولي عهده (المهدي) وجيشه الخراساني مفصولا عن مقر الخلافة ، ليكون مستمداً اذا اقتضت الحال لقمع كل نزاع قد ينشب بين هذا الجيش وبين جنده العربي هناك . وكانت تعرف هذه المحلة الجديدة اولا باسم « عسكر المهدي » ،

---

(٢٦) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .
(٢٧) ياسين خيرالله العمري ، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، دار البصري بغداد ١٩٦٨ ، تحقيق للمخطوطة في سنة ١٩١٧ لنفس المؤلف ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .
(٢٨) محمود شكري البغدادي ، اخبار بغداد وما جاورها من البلاد ، مخطوطة سنة ١٢٢٠هـ / ورقة ٨٥ .
الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د . جابر عبد العال ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .
(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ، انتشارات جيهان ، تهران ، ج ٤ ، ص ٨ .
(٣٠) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٦٤ .
(٣١) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ .
ـ كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

ثم سميت « الرصافة » ، والرصافة كانت تطلق على المواضع التي توجد فيها طرق مرتفعة . واول بناء شيد في هذا الجانب هو جامع الرصافة الكبير ، ثم عقب ذلك بناء قصر المهدي في جوار الجامع واقيمت الدور والقطائع حوله .(٢٢) وقد انشيء حول المعسكر سور يدور حوله خندق عملا بما تقتضيه الاحوال الدفاعية. وعقد المنصور جسراً فوق دجلة من جهة باب خراسان ليصل به القسم الغربي من مدينته بمحلة الرصافة الشرقية وكان يعرف هذا الجسر باسم الجسر الكبير او جسر الرصافة .(٢٢)

وصارت الرصافة وحدها بقدر مدينة المنصور ، لان من المقطعين من جعلوا قطائعهم بالجانب الغربي بساتين واسواقا ومستغلات وغير ذلك من المرافق ، وكانت بين القطائع منازل الجند وسائر الناس من الملاكين والتجار . وكان في الجانب الشرقي اربعة الاف درب وسكة(٢٣) .

توسع الرصافة وبناء اسوارها :

كانت بغداد في اواخر القرن الثالث الهجري تشبه حلقة يحيط بها سور المستمين من كل اطرافها ، ثم اخذ العمران ينتشر في الجانب الشرقي منها فامتد جنوب السور على ضفة دجلة الى مسافة زهاء كيلومتر ، حيث اقيمت قصور الخلفاء والبساتين الملحقة بها وكان اهم هذه المنشآت قصر التاج الذي اسسه المعتضد واتم بناءه المكتفي ، ودار الشجرة والدار المثمنة التي جلس فيها الطاغية هولاكو عند فتحه بغداد ، والدار المربعة ، ودار الوزارة ، والدواوين وغيرها . وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها باسم (دار الخلافة) . وقد اتخذها الخلفاء العباسيون مقراً لحكمهم بعد عودتهم من سامراء سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م . وقد سورت هذه الدار بسور على هيئة نصف دائرة . وقد وصفها ابن الجوزي بقوله « وهي بنفسها بلد » . وكان للسور الذي يطوقها تسعة ابواب رئيسة اشهرها باب الغربة ، وباب الخاصة ، وباب النوبي ، وباب العامة وباب المراتب . اما تاريخ انشاء سور دار الخلافة ، فهو على الارجح ان المعتضد شرع ببنائه واتمه الخلفاء المتأخرون . واتصلت العمارات حول دار الخلافة واصبح سوق الثلاثاء اعظم سوق في الجانب الشرقي فانشئت على جانبيه المحلات والدروب وفي منتصف القرن الخامس الهجري انشئت المدرسة النظامية الى الشمال من دار الخلافة ثم انشئت شمال هذه المدرسة المدرسة المستنصرية في الثلث الاول من القرن السابع .(٢٤)

وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد ، اصبح اهم العمران في الجانب الشرقي منتشراً حول دار الخلافة ، فكانت اصلا لمدينة بغداد الرئيسة التي ظهرت في العهد الاخير . ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر ٤٨٨هـ/١٠٩٥م شرع في انشاء سور عظيم وخندق عميق يحيطان بهذه المدينة الجديدة . وبضمان داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي انشأ حولها . وكان هذا السور هو وخندقه الخارجي يبدءان من دجلة شمالا وينتهيان الى دجلة عند الباب الشرقي الحالي جنوباً .

وكان الشروع في انشاء هذا السور في خلافة المستظهر ، لكنه لم ينجز سوى قسم يسير منه . واكمل انشاؤه في عهد الخليفة المسترشد . فاتم بناؤه بناء محكماً سنة ٥١٧هـ ، وجعل عرضه (٢٢ ذراعاً) ، وقد ظل هذا السور قائماً حتى اواخر القرن الثالث عشر للهجرة اي ما يقارب ثمانمائة عام . وفي عهد المقتفي عملت مسناة حول السور لئلا تؤثر مياه الخندق فيه ، ثم اكمل في عهد خلفائه وكان الخندق يتصل بنهر دجلة في بدايته ونهايته . وكان يسد عادة كلما دعت الحاجة الى ذلك للحيلولة دون عبور الغزاة . الا ان المياه كانت تتسرب اليه من جهة البر عندما يفيض نهرا دجلة وديالى وتحدث بثوق في السداد التي في الجهة اليسرى لنهر دجلة شمالا وفي السداد التي في الجهة اليمنى لنهر ديالى شرقاً ؛ فتتجمع مياه الفيضانات خلف سور المدينة فيمتلىء الخندق بالمياه وتصبح مدينة بغداد الشرقية جزيرة محاطة بالمياه من كل جهاتها .

وقد جعل لهذا السور العظيم اربعة ابواب هي : الباب الاعلى في الشمال الذي سماه الناس (باب السلطان) اي السلطان طغرلبك لانه دخل بغداد هناك ، وعرف في العصور الاخيرة بـ « باب

(٢٢) احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢٣) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٢٤ .

(٢٤) انظر : كليمان هوار ، خطط بغداد ، تعريب ناجي معروف ، مطبعة المعاني بغداد ١٩٦١ ، ص ١١ ـ ١٦ .
ـ د . احمد سوسة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ٥٨ .
ـ د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٥١ .

المعظم » وقد ظل هذا الباب حتى سنة ١٩٢٢ حيث هدم لكي يتسع الدخول الى بغداد ومحله اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك على يمين الداخل الى بغداد . والباب الثاني هو « باب الظفرية » في الجنوب وهو الباب المقابل لمحلة الظفرية وما زال قائماً بقرب جامع الشيخ عمر السهروردي . والباب الثالث هو الذي كان يعرف بـ « الباب الوسطاني » و « باب الحلبة » وهو الذي عرف في العصور الاخيرة بـ « باب الطلسم » لان في اعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى كل يمنته ويسرته تمثال افعى عظيمة ، وعد العامة ذلك طلسمة لبغداد تحفظها من الاعداء . وقد اتخذه الاتراك في ايامهم الاخيرة بالعراق مخزناً للبارود ثم اوقدوا النار في البارود ونسفوه ليلة خروجهم من بغداد واخلائهم لها للانكليز في ١١ اذار ١٩١٧ . اما الباب الرابع من ابواب السور فهو « باب البصلية » وسمي في العصور التي قبل الاخيرة « باب كلواذى » وقد عرف هذا الباب في العصور الاخيرة بـ « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة سنة ١٩٣٧ ، بعد ان كان كنيسة للانكليز ، واصبح محله في ساحة التحرير قبالة مدخل جسر الجمهورية . وكان عدا الابواب الاربعة الرئيسة هذه عدد من الابواب الاخرى السرية(٢٤) (انظر الخارطة شكل ٦) .

وفي اخر عهد الخلافة العباسية وبامر المستنصر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م تكامل بناء سور حول الرصافة ، ومن المرجح ان هذا السور كان يقتفي اثر سور المستعين القديم في اكثر اقسامه. والظاهر انه انشيء للدفاع عن منطقة الرصافة بعد ان وصل خبر تهيؤ عساكر المغول للزحف نحو بغداد . وقد استفيد من هذا السور في الوقاية من خطر الفيضان .

وبعد اكثر من قرنين قام المطراقي الذي كلفه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٤هـ برسم السور . وفي القرن السابع عشر الميلادي وصفه تافرنييه الفرنسي ، وذكر ابراجه والمدافع التي فوقه وذكر ان طوله حوالي ثلاثة اميال .(٢٥)

وفي سنة ١٧٣٢ ذكر الجغرافي التركي (حاجي خليفه) في كتابه (جهانخا) ؛ ان محيط بغداد الشرقية يبلغ بين ١١٢٫٤٠٠ و ١٢٫٤٠٠ ذراع ، وقد ذكر ان السور كان يضم حوالي ١٦٣ برجا واستحكاماً ، ولكن هذه الابراج لم يكن الدفاع بها ممكناً الا بواسطة الاسلحة الخفيفة ، بينما الابراج العشرة الكبيرة التي في السور كان في كل واحد منها ستة مدافع او سبعة . اضافة الى وجود عدد من الثقوب بين كل ثقب واخر خطوة واحدة .(٢٦)

(٢٥) هوار ، المصدر نفسه .

محلات الرصافة :

اخذت الرصافة بالنمو والتوسع ، بحيث اصبحت تزاحم بغداد الغربية في سعة قصورها وشوارعها واسواقها وعظمتها . وكما جرى للمدينة المدورة حين احاطت بها الارباض التي فيها قطائع رجال بلاط المنصور . كذلك حصل للرصافة في خلال الاثنى عشرة سنة من حكم المهدي ، فاصبحت مركزاً لمدينة نشأت من الدور التي شيدها ابناء الجيل الثاني من رجال القصر. واضحت محلات بغداد الشرقية ثلاث : الرصافة والشماسية والمخرم في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م (لاحظ الخارطة شكل ـ ٧) .

ومن المحلات الاخرى محلة مشهد الامام ابي حنيفة وكانت مسورة ،وجامع السلطان وهي محلة غير مسورة . وفي جوار محلة ابي حنيفة نشأت محلة باسم (محلة سوق يحيى) . كما نشأت محلتا الخضيرية شمالا جوار محلة الشماسية . ومن المحلات الاخرى محلة الشيخ والظفرية والى جانب الاخيرة ، محلة اخرى كبيرة يقال لها قراح ظفر منسوبة الى ظفر الخادم والترجمانية وهي من محلات بغداد المتصلة بالمراوزة(٢٧) .

حالة العمران في الرصافة :

بعد انتصار المامون قام بنقل مقر الحكم الى الجانب الشرقي من بغداد واستولى على مقر البرامكة السابق . وفي عهد المعتصم الذي حكم للفترة بين (٢١٨ـ٢٢٧هـ / ٨٣٣ـ٨٤٢م) تنزل بغداد عن مركزها الممتاز باعتبارها حاضرة الدولة؛ بسبب قيامه بنقل العاصمة الى سامراء وذلك لمدة خمس وخمسين سنة(٢٨) . وفي عهد المعتمد نقل مقر الخلافة الى بغداد ، عندما هجر مقر

(٢٦) سعاد هادي العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، مطبعة دار المعرفة، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ١٤ ـ ١٥ .

(٢٧) محمود شكري البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ـ٨٩. ـ د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٨ .

(٢٨) دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ ـ ١١ .

الخلافة وجعل بغداد حاضرة الدولة الاولى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م .

وعند تولي المستعين الخلافة ، حاول ان يتم السور حول الجانب الشرقي (كما سبق ذكره) ، الا انه قبل ان يتمه فاجأه المعتز على رأس جيش وبدأ الحصار على بغداد ، مما ادى الى ان يصاب الجانب الشرقي باضرار جسيمة وتخربت اهم احيائه كالرصافة والشماسية والمخرم واعيد بناء اجزاء منها فقط بعد ذلك .(٣٩)

وشهدت الفترة التي اعقبت عودة الخلفاء الى بغداد ، وقبل قدوم بني بويه ، بناء القصور العظيمة ـ على طول ضفة النهر ـ والجوامع ومنها جامع الخليفة (جامع سوق الغزل) والمسجد الجامع المعروف بجامع السلطان . وكانت القصور الى جنوب باب سوق الثلاثاء في سور المدينة الذي اقامه المستعين . وهكذا فقد تضاعفت مساحة بغداد قبل مرور زمن طويل على ذلك ، وانشئت محلات جديدة حول قصر الفردوس والحسني والتاج ، واتصل بعضها بالمخرم .(٤٠) وبنى المستنصر بالله عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢–١٢٣٣م المدرسة المستنصرية التي لازالت قائمة وتطل على نهر دجلة .

انهار بغداد ومياه الشرب فيها

كان يروي الجانب الغربي من بغداد نهر واسع يسمى نهر عيسى العظيم، يتفرع من الجانب الايسر لنهر الفرات شمال الفلوجة ويصب في دجلة جنوب بغداد الحالية . وكان قد انشيء عليه سد من الحجر لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسين ،شمالي وهو نهر الصراة العظمى وجنوبي يعرف بالرفيل والذي صار يسمى في العهد العربي باسم نهر عيسى . ويتفرع نهر كرخايا من جهته اليسرى . ويتفرع الجدولان من الجانب الايسر للنهر امام السد ، ويجريان متوازيين نحو الشرق وينتهيان الى دجلة فيصبان في وسط بغداد الحالية .(٤١) اما الجزء الشمالي من الجانب الغربي فكان يسقى من جدول قديم يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة في جوار بلد الحالية وسمي في العهد العربي باسم نهر دجيل وكان يتفرع من نهر بطاطيا .

ومن الانهار الاخرى ، نهر العلا وهو يستمد مياهه من الخالص . ونهر موسى ونهر القلايين اللذان يجريان في بغداد . ونهر الطابق في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلايين شرقا واصل اسمه نهر بابك وماخذه من نهر كرخايا ويصب في نهر عيسى عند دار البطيخ ، ونهر الدجاج عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ(٤٢). (انظر الخارطة شكل ـ ٨) .

اما شبكة جداول الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) ، فكان يستقي من نهر واسع يفوق كلا من انهار الجانب الغربي حجما وطولا ، وهذا النهر هو الذي عرف (بالنهروان) . وكان يتفرع من الجانب الايسر من نهر دجلة في جوار سامراء فيمتد بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق مسافة اكثر من مائتي كيلو متر حيث كان اطول نهر عرفه العالم وقتذاك . ثم يلتقي اخيراً بدجلة بالقرب من الكوت الحالية .

وكان فرعان من الفروع لهذا النهر يمدان شبكة الانهار التي كانت تتغلغل في قلب منطقة بغداد الشرقية ، احدهما وهو الشمالي الذي كان يعرف (طسوج نهر بوق) وكانت منطقة الرصافة وما جاورها من قطائع تقع ضمن هذا الطسوج ، وكانت تروى من الانهار التي كانت تتفرع من النهروان فتؤلف شبكة من الجداول تنتشر فروعها في تلك المنطقة . وكان نهر الخالص الفرع الرئيسي الذي يمون هذه الجداول بالمياه واللذي يتفرع من نهر الفضل . اما الاخر الجنوبي فكان يسمى (طسوج كلواذا ونهر بين) وهو يأخذ من الجانب الايمن لنهر النهروان متجهاً نحو كلواذى حيث يصب في دجلة وعليه كان يعتمد جزء من الجانب الشرقي لبغداد(٤٣) (انظر الخارطة شكل ٨) .

اما إرواء مدينة بغداد ، فبالنسبة الى المدينة المدورة ، عندما بنى المنصور مدينته لم يفكر في سحب المياه من جداول لقربها من دجلة فكانت ترتوي بماء الروايا وهي جلود تملأ ماءاً فكانت تنقل الى المدينة على بغال ، ولما شعر بصعوبة نقل الماء في الروايا ورأى ما تحدثه البغال من اوساخ . امر رجلين من العالمين بمد القنوات

(٣٩) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٥٥٣ .
(٤٠) كي لسترنج ، ص ٢٧٠ .
(٤١) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٨٦ ـ ٨٩ .
(٤٢) ياسين العمري ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
(٤٣) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٢٣ .

بان يمدا قناتين من دجلة الى داخل المدينة .(٤٤) وامر ايضا بمد قناة من نهر دجيل وقناة من نهر كرخايا وجرهما الى المدينة في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالآجر والصاروج من اعلاها وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع فضلا عن الارباض خارج المدينة . وتجري صيفا وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت من الاوقات .(٤٥)

تخطيط بغداد منذ الفتح المغولي ١٢٥٨م وحتى الوقت الحاضر :

للاطلاع على حالة التخطيط في بغداد منذ نهاية العصر العباسي ، ودخول المغول وحتى الوقت الحاضر ، لابد من استعراض موجز لحالة الادارة التي كانت في هذه المدينة . ففي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وصل هولاكو وجنوده الترك والمغول الى بغداد ووجد المستعصم نفسه مضطراً الى التسليم دون قيد فدخلها المغول ونهبت المدينة واحرقت ولكنها لم تخرب باسرها كغيرها من المدن التي فتحوها لانهم كانوا يريدون ان يتخذوا منها عاصمة لهم .

وظلت بغداد بعد احتلال هولاكو تتقاذفها امواج الحروب فتتناوبها ايدي الحكم من احتلال الى آخر زهاء اربعة قرون متتالية الى ان احتلها السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م . فقد حكم فيها الايلخانيّون اخلاف هولاكو ٨٢ عاما . ثم عقبهم الجلائريون الذين حكموا البلاد ٥٧ عاما ، وبنيت في ايامهم المدرسة المرجانية . وفي ايامهم استولى تيمورلنك على بغداد مرتين الاولى عام ١٣٩٣م ولم يلحق بالمدينة ضرر ؛ والثانية عام ١٤٠٢م حيث ذبح اهلها وخربت المساكن والمنشآت العامة . ورجع احمد الجلائري عام ١٤٠٥م الذي احكم الاسوار (بقدر استطاعته) التي دمرها تيمور ، ولم ينقض سوى ست سنوات حتى قتله قره يوسف امير دولة الخروف الاسود التركمانية ، واستولى رجاله على المدينة وظلت بحوزتهم حتى عام ١٤٦٨م . الى ان انتزعها منهم تركمان الخروف الابيض ؛ وفي سنة ١٥٠٨م غزا الشاه اسماعيل الصفوي بغداد وظلت بحوزة الصفويين حتى عام ١٥٣٤م . حيث احتلها الاتراك بقيادة سليمان الاول ، وظل يحكمها حتى عام ١٦٢٣م ، حيث استولى عليها الشاه عباس الاول الصفوي . الا ان الاتراك استعادوها مرة ثانية عام ١٦٣٨ بقيادة السلطان مراد الرابع .

وسد مراد باب الطلسم ورمم عدة اضرحة دينية ، وفي هذا العهد هبطت بغداد الى الدرك الاسفل . واستمرت بغداد من جديد مركز ولاية تركية يحكمها هي والبصرة وال واحد في بعض الاحيان . وتميزت ولاية مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢ في تاريخ بغداد بانها كانت عهد نهضة اذ تم خلالها فتح عدة مدارس واقامة منشآت ومد خط للترام تجره الخيول بين بغداد والكاظمية .

وفي الفترة الممتدة بين ١٨٧٦ وحتى ١٩٠٩ وهي فترة حكم عبدالحميد لم تشهد بغداد من اعمال الاعمار الذي يهم التخطيط فيها سوى بعض المنجزات البسيطة ومنها انشاء العديد من المباني العامة مثل تاسيس دارين للمطالعة وحصر محلات بيع النفط ، واصلاح بعض الشوارع والازقة التي لم تكن منتظمة بل انها كانت اما مرصوفة بالحجارة او طرقات طينية .(٤٦)

وللاحاطة بحالة بغداد العمرانية يمكن استعراض بعض الاقوال التي ذكرها الباحثون في كتبهم ،وكذلك ذكر اهم المعالم الاثارية والحضارية التي لا زالت تحتويها مدينة بغداد .

ففي سنة ١٢٥٨م ، لم يبق من الجانب الغربي الا محال متفرقة اعمرها الكرخ ، وخرب الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم ، وخرب السور(٤٧) .

وفي سنة ١٣٣٩م كانت بغداد الشرقية والغربية محاطة بالاسوار، ولسورالمدينة الشرقية اربعة ابواب ويمتد من ضفة النهر الى ضفته في اسفل السور على هيئة نصف دائرة . ولسور الربض الغربي (الكرخ) بابان .

وكانت حالة بغداد بين ١٥٦٢-١٥٧٤ كما شاهدها cacsar Federigo وكذلك راوولف ، قليلة البهجة وابنيتها ليست مشيدة بصورة جيدة،

---

(٤٤) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٥٩ .
- سوسة ، ص ٩٢ - ٩٤ .
- البغدادي ، ص ١١٢ .
(٤٥) محمود شكري البغدادي ، ورقة ٢٢ .

(٤٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١٥ .
- عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ، ١٩٤٩ والجزء الثامن ١٩٥٦ .
- جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب / جامعة بغداد ، ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .
(٤٧) صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق ، مراصد الاطلاع ، ليدن ، ١٨٥٢ ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

وتظهر فيها الازقة الضيقة والبيوت المتهدمة وكثير من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى اسود قاتم نقشت على احجارها الكتابات العربية. ومن الاماكن التي تستحق الرؤية مقر الباشا التركي والسوق الكبير ودكاكين التجار ، اما حماماتها فهي اكثر رداءة من حمامات طرابلس والاسكندرية(٤٨) .

اما في الفترة بين ١٦٣٢–١٦٣٨ ، فان من الذين وصفوا بغداد هو الفرنسي تافرنيه الذي مر بالعراق اثناء ذهابه الى الهند ، وتبين من وصفه ، انها كانت في جانبها الشرقي محاطة بسور من الاجر يبلغ طوله نحو ثلاثة اميال ، وتقدر مساحة الارض التي كانت عليها السور بالف وخمسمائة خطوة طولا وسبعمائة او ثمنمائة خطوة عرضا .(٤٩)

اما في الفترة بين ١٧٣٢–١٧٥٠ فقد كتب كارستين عن بغداد إذ ذكر ان مقر الحكومة التركية في الولاية كان في بغداد الشرقية ويحيط السور بالمدينة .

وفي سنة ١٧٦٤ وصف نيبور بغداد الحديثة حيث ذكر ان الازقة لا زالت ضيقة وقذرة ومرتفعة ، وان الدور متألفة من عدة طوابق واطرافها محاطة بالجدران وقد غرس في وسطها بعض النخيل وتؤثر اشعة الشمس النازلة على هذا (الحوش) في مضاعفة الحرارة . فيحتاج المرء هناك الى الغرف الصيفية الباردة والمبنية تحت الارض (السراديب) . وتكون سقوف هذه الغرف مغطاة بصورة تامة ومبنية على عمق اربعة او خمسة اقدام تحت الارض وتتصل بواسطة الدهاليز الهوائية المفتوحة على استقامة الشمال ويجري الهواء البارد في هذه الدهاليز وهذه المحلات مفروشة بصورة حسنة .

وكانت استحكامات مدينة بغداد قوية جداً. وكان عدد الجوامع ذات المنائر فيها يبلغ عشرين ، اضافة الى وجود كثير من المساجد الصغيرة . وكان في المدينة وضواحيها حينئذ (٢٢ خانا) ولكن ستة او سبعة منها فقط كانت مشغولة من قبل التجار الكبار ، كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة .(٥٠)

(٤٨) سعاد العمري ، ص ١٦ – ١٧ .
(٤٩) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٩٢ .
– العمري ، ص ١٠ .
(٥٠) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ٢٥٢ .

اما حالة بغداد في عام ١٨٣٠–١٨٣١ ، فقد كانت على الرغم من تعرضها للتهديم ، ذات اسوار احسن حالا من المدن الاخرى في دول مجاورة . اما ازقتها فكانت ضيقة وعرضها على الاكثر تسعة او عشرة اقدام . وكانت ابنيتها متصلة وليس فيها شبابيك ، وتلبيوت ابواب جميلة ، واكثرها لطيفة جداً من الداخل كما فيها الشرفات والاطواق الكثيرة المطلة على الشارع حيث يجلس هناك الناس .وتعج الميادين العامة بالمقاهي الكثيرة حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة .

اما بغداد في سنة ١٨٦٤ فكانت تتميز كما وصفها Peterman في كتابه (رحلات في الشرق) بكون القسم الاكبر منها واقع في الجانب الايسر ، ومحاط بسور عال متهدم في كثير من المواقع وفيه خندق عميق وجاف . وتحوي المدينة على الكثير من الجوامع الجميلة ذات القباب والمنائر المزينة بالطابوق الملون اللامع . وتتميز ازقتها بان اكثرها ضيقة وممتلئة بالزوايا المفروشة بالحجر ، بحيث يصعب السير فيها اثناء هطول الامطار ، واسواقها بعضها مسقف .

وكانت الدور تبنى وفق طراز خاص من البناء ، إذ كانت الدار تحتوي على حوش واسع في القسم الايمن مطبق بالكاشي ، وهول مفتوح يسمى (بالايوان) وبجانبه غرفتان تحتهما سرداب كبير . وفي مدخله باب يصل الى المطبخ عبر (هول) صغير وفي الوسط مقابل باب الدار تقريباً يوجد ايوان ثان كبير(٥١) .

اما حالة المدينة حتى عام ١٩١٧م ، فقد تعرضت المدينة الى فيضانات خطيرة في سنوات ١٨٨٤ و ١٨٩٤ و ١٨٩٦ و ١٩٠٧ و ١٩١٥م . يضاف الى ذلك ضعف الادارة واضطراب الامن . وفقد سور المدينة اهميته وازيلت المساة لاستعمال حجارتها في الابنية ثم دفن الخندق وبقي السور الترابي ، وصار يعرف بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧ بـ (سدة المدينة) .

ثم جاء عهد الاحتلال البريطاني ، فلم تكترث بريطانيا للامر وللخراب الذي اصاب بغداد ، فاستمر الامر على حاله ، ومعه بغداد مستمرة على حماية نفسها بالطرق العلاجية الوقتية باعتمادها على السداد الترابية .وقامت السلطات العسكرية المحتلة بتحكيم السور القديم الذي

(٥١) العمري ، ص ٨٤ – ٨٨ .

صار يعرف باسم (السدة الشرقية) . يضاف الى ذلك انشاء سداد جديدة لحماية المحلات العديدة في بغداد مثل البتاوين والعلوية والكرادة الشرقية والزوية ومعسكر الرشيد والرستمية والزعفرانية . وخلال الفترة الممتدة بين ١٩١٩ و ١٩٥٤ تعرضت بغداد الى تسعة فيضانات غرق قسم من بغداد في بعض منها .(٥٢) اما عن اهتمام الانكليز بالجوانب العمرانية والتخطيطية لبغداد فلم يكن يذكر لشدة اهمالهم لهذا الجانب وتاكيدهم على امور السيطرة على البلاد وابتزازها .

وفي نهاية هذا البحث ينبغي ان نؤكد على ضرورة الاهتمام الكبير بالموروثات الحضارية التي لازال بعضها شاخصاً حتى الوقت الحاضر في مدينة بغداد ، ومنها البيوت الكبيرة ذات الطراز العربي الاصيل ، والمدارس والجوامع ، والاسواق بحيث يمكن تحويلها الى اماكن سياحية تعكس اصالة الحضارة العربية ، او تلك التي تحتاج الى احياء كما لوانها لازالت قائمة حتى الوقت الحاضر ومنها سور بغداد وابوابه خاصة وان هذا السور توجد عنه العديد من المصورات والمرتسمات التي يمكن الاستفادة منها . وفي الخارطة شكل (٩) يمكن ملاحظة بعضاً من هذه المواضع التي توجد فيها بعض تلك الموروثات الحضارية . وذلك لان الاهتمام بها خدمة لامتنا العربية المجيدة ، ومتعة لاجيالنا والسواح الاجانب الذين يرتادون بلادنا .

ومما يلاحظ على مدينة بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، انها شهدت توسعاً كبيراً في العمران . ونمواً مضطرداً في عدد السكان اذ ازداد عددهم من مليون نسمة عام ١٩٥٧ الى حوالي ثلاثة ملايين عام ١٩٧٧ بسبب الهجرة السكانية من جميع المحافظات الى بغداد ، وقد صحب ذلك ظهور احياء جديدة وعلى الاخص بعد فتح قناة الجيش في عام ١٩٦١ ، اذ ادى الاجراء الاخير الى توزيع العديد من القطع السكنية على المواطنين على جانبي القناة التي يبلغ طولها ٢٣٫٧ كم(٥٣) . يضاف الى ذلك التوسع الافقي الكبير لمدينة بغداد في جانبيها الشرقي والغربي ، مما جعلها مدينة تفتقر الى الكثير من الجوانب التخطيطية التي تتوفر في المدن العالمية الكبرى .

(٥٢) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٥٣) صالح فليح الهيتي ، تطور الوظيفة السكنية لمدينة بغداد الكبرى ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٧ ـ ١٢١ .

★

WWW.ATTAWEEL.COM